الفصل الثانى

العلوم والدراسة الطبية والعلماء على عهد العباسيين
المستشفيات العباسية
النهضة فى محنة العصر المظلم

منشأ الطب في العراق ، مدرسة جندي سابور ، كيف انتقلت العلوم الطبية من جندي سابور الى بغداد ؟ الاطباء والمستشفيات في عهد الدولة العباسية ، مشاهير المترجمين : يوحنا بن ماسويه ، حنين بن اسحق الترجمان . المؤلفون : الكندي ، الرازي ، علي بن العباس ، ابن سينا ، المدارس والبيمارستانات العراقية ، البيمارستانات وامر العناية بها ، التهذيب الطبي ، مشاهير الاطباء : سنان بن ثابت وادارة المعاهد الصحية ، عناية الخلفاء بالمستشفيات الدائمة والمستشفيات السيارة ، آل بختيشوع ، بيمارستان هرون الرشيد ، البيمارستان العضدي ، العصر المظلم

obeikandi.com

١٥

الدراسة الطبية في بغداد على عهد العباسيين

منشأ الطب في العراق

ان مصدر الطب العربي في العراق وفي كل الاقطار التابعة الى المملكة الاسلامية العربية هو الطب اليوناني الذي بنى اساسه ابقراط وجالينوس . وقد حمل العلوم الطبية وسائر العلوم الى العراق النسطوريون اتباع نسطور الذي كان بطركا للقسطنطينية سنة ٤٢٨ ميلادية اي في عهد الاختلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية . وقد كان نسطور هذا قد اخرج من الكنيسة المسيحية لمخالفته بعض عقائدها ونفي مع اتباعه الى انطاكية ثم الى معان ثم الى صعيد مصر ومات هناك في سنة ٤٥٠ وتفرق اتباعه في البلاد ورحل بعضهم الى اقليم الجزيرة .[١] واسس مدرستين للطب احداهما في نصيبين والاخرى في الرهاء (اديسا) والرهاء مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام سميت باسم الذي استحدثها وهو الرهاء بن مالك واسمها بالرومية اديسا (Edessa) بنيت في السنة السادسة من موت الاسكندر ، بناها الملك سلوقس والنسبة اليها رهاوي. واخذوا في ممارسة الطب وتدريسه فيما بين النهرين وكانت جهودهم في التدريس متمركزة في الرهاء حتى صارت هذه المدينة من اشهر مراكز الدراسة الطبية في اواخر القرن الخامس للميلاد . ولما اضطهدهم المسيحيون الارثودكس هاجروا الى فارس وهناك انشأوا مدرسة جنديسابور الشهيرة التي يصفها المؤرخون بانها مهد الطب الاسلامي [٢]

---

(١) معجم البلدان .

(٢) كان اقليم الجزيرة من الاقاليم الاسلامية في عهد العباسيين . والجزيرة هي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور وهي :

١ ــ ديار ربيعة وبها نصيبين ورأس العين .

٢ ــ ديار مضر وبها الرها .

٣ ــ ديار بكر .

وقد نزل العرب من العدنانيين قبل الاسلام بهذا الاقليم بعد ان درست اثار من كان به من الاشوريين وغيرهم ولذلك يعتبر اقليما عربيا وينتهي هذا الاقليم الى حدود الروم وارمينيا (محاضرات تاريخ الامم الاسلامية للخضري) .

١٦

مدرسة جنديسابور

جنديسابور مدينة بخوزستان في مكان يسمى شاه آباد في الجهة الجنوبية الغربية من ايران : بناها سابور بن اردشير الساساني فنسبت اليه واسكنها سبي الروم وطائفة من جنده وهي مدينة حصينة واسعة بها النخل والزرع والمياه · وقد افتتحها المسلمون سنة فتح نهاوند وهي سنة (١٩هـ) في ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ·

وكانت مدرسة جندي سابور تدرس الطب وسائر العلوم المختلفة ، وكان القائم بالتدريس فيها النسطوريون الذين حملوا اليها مؤلفات اليونان الطبية والفلسفية وترجموا الكثير منها الى اللغة السريانية التي كانت لغة التدريس في هذه المدرسة · وفي القرن الخامس للميلاد اصبحت جندي سابور مركز الاتصال بين النسطوريين والهنود وامتزجت في كليتها الطبية العلوم اليونانية والهندية ·

كيف انتقلت العلوم الطبية من جنديسابور الى بغداد

كانت العرب تعرف مدرسة جنديسابور وقد درس فيها طبيبهم المشهور الحارث بن كلده الذي كان قد ادرك عهد النبي العربي · ولذلك لما استولى المسلمون على فارس كانت مدرسة جنديسابور موضع اهتمامهم ورعايتهم · ولما ولى الخلافة بنو العباس كان اول من اتجه الى رعاية مدرسة جنديسابور الخليفة ابو جعفر المنصور وذلك انه في سنة ١٤٨ للهجرة مرض وفسدت معدته وانقطعت شهوته فتقدم الى الربيع ان يفتش له عن طبيب فوقع اختياره على جورجيس رئيس اطباء جنديسابور (١) فانفذ المنصور من يحضره فخرج جورجيس مع الرسول الى مدينة السلام بعد ان اوصى ابنه بختيشوع بامر البيمارستان وما يتعلق به هناك ولما وصل جورجيس الى المنصور وجد منه حفاوة كبيرة وتقديرا لما بذله في معالجته فانزله في منزل جليل واكرمه وامر بان يجاب الى كل ما يسأل · وهكذا فقد كان خلفاء بني العباس يقدرون اهل الفضل من الاطباء ويغدقون عليهم العطايا الجزيلة ولعل ذلك كان السبب في انتقال

---

(١) ابن ابي اصيبعة صفحة ١٣٣ ·

اكثر العلماء من جنديسابور واجتماعهم في بغداد لانهم وجدوا من خلفاء بني العباس في العصر الاول ميلا الى العلم وتقديرا لاهله . ولما كان بعد سنتين قال الخليفة لجورجيس ان ارسل من يحضر ابنك الينا فقد بلغنا انه مثلك في الطب . فقال له جورجيس ان جنديسابور محتاجة اليه وان فارقها فسد امر البيمارستان وههنا معي تلامذة قد ربيتهم وخرجتهم في الصناعة فامر الخليفة باحضارهم فوجد فيهم الكفاءة وبقي هؤلاء في الخدمة الى ان مات المنصور .

ولما مرض موسى الهادي ارسل الى جنديسابور من يحضر له بختيشوع بن جورجيس فمات قبل قدوم بختيشوع ومعنى كلمة بختيشوع عبدالمسيح لان البخت في اللغة السريانية هو العبد . ولما كان في سنة ١٧١ للهجرة مرض هرون الرشيد من صداع لحقه فامر يحى بن خالد ان يستدعي بختيشوع من جنديسابور وبعد مدة وافى بختيشوع بن جرجيس ووصل الى هرون الرشيد وكان لدى هرون جماعة من الاطباء ظهر فضله عليهم فخلع عليه الرشيد خلعة حسنة جليلة ووهب له مالا وافرا وجعله رئيسا للاطباء في بغداد .

ولما كان في سنة ١٧٥ مرض جعفر بن يحى فتقدم الرشيد الى بختيشوع ان يتولى خدمته ومعالجته ولما كان في بعض الايام قال له جعفر اريد ان تختار لي طبيبا ماهرا فقال له ان ابني جبرئيل امهر مني وليس في الاطباء من يشاكله فقال له احضرنيه ولما احضره عالجه وبرأ وصار محل جبرئيل يقوي في كل وقت حتى ان الرشيد قال لاصحابه «من كانت له الي حاجة فليخاطب بها جبرئيل لاني افعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني» . ويقال ان الرشيد منذ استخدمه في معالجته الى ان انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض فحضى عنده . واما جعفر بن يحى فاحبه مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب .

وكان (ماسويه) ابو يوحنا تلميذا في بيمارستان جنديسابور ثلاثين سنة . وقد زعموا انه في اول امره كان يعمل في دق الادوية في البيمارستان ، فلما اتصل به محل جبرئيل من الرشيد قال ان هذا قد بلغ السها ونحن في البيمارستان لا نتجاوزه . فبلغ جبرائيل ذلك وهو في بغداد وكان البيمارستان تحت ادارة ماسوية فامر باخراجه منه وقطع رزقه فبقي منقطعا

به فصار الى مدينة السلام لم يأذن له ولما ضاق به الامر اخذ يمارس مهنته وكان كحالا وقد ساعدته الايام اذ نجح في معالجة عين خادم للفضل بن الربيع فنال من الخادم عطاء جزيلا ولم تمض الايام حتى اشتكت عين الفضل نفسه فنفذ اليه جبرئيل الكحالين فلم ينتفع بهم فادخل الخادم ماسويه ليلا فلم يزل يكحله الى ثلث الليل ثم سقاه دواء مسهلا فصلح به وكان هذا سبب تقدمه واشتهاره ، فقد اجرى الفضل على ماسويه في كل شهر ما يزيد على حاجته باضعاف وامره ان يحمل عياله من جنديسابور الى بغداد فحمل من عياله (يوحنا) ابنه حينئذ وهو صبي فما مضت الا ايام حتى اشتكت عين الرشيد فاحضره لمعالجته فبرأ بعد يومين وامر الرشيد ان يجري عليه مبلغا من الدراهم والزمه الخدمة مع جبرئيل وسائر من كان في الخدمة من الاطباء ٠

ان كرم الخلفاء العباسيين في صدر الدولة وتقديرهم لاهل العلم وخاصة الاطباء قد جعل علماء جنديسابور يرحلون الى بغداد ويلتفون حول الخلفاء ووزرائهم ؛ فلما رأى الخلفاء اجتماع اهل العلم عندهم شرعوا بتأسيس المدارس الطبية والبيمارستانات في مدينة السلام وهكذا انتقل مركز العلم من جنديسابور الى بغداد وسوف ترى كيف ان الصبي (يوحنا) قد ترعرع في ظل الخلافة ونبغ في الترجمة حتى قلده الرشيد ترجمة الكتب اليونانية القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه امينا على الترجمة ٠

الاطباء والمستشفيات في عهد الدولة العباسية

وجد اشهر الاطباء في صدر الدولة العباسية ايام خلافة المنصور والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ٠ وقد نشطت الحركة العلمية في هذا العصر وانشأت المدارس التي تدرس فيها العلوم الطبية والفلسفية واشتدت حركة الترجمة بفضل ما بذله الخلفاء في هذا السبيل حتى كثر عدد الاطباء في مدينة السلام ٠ وقد ذُكر لنا ان عدد الاطباء المتخرجين قد بلغ يوما ما ٨٦٠ طبيبا في مدينة بغداد وكانت في هذه المدينة عدة بيمارستانات ومدارس للطب (١) ٠

---

(١) الطب العربي كامبيل ج ١ ص ٤٨ ٠

ونحن نذكر فيما يلي الاطباء الذين اشتهروا في الترجمة واولئك الذين وصلت الينا مؤلفاتهم من مشاهير الاطباء المؤلفين الذين كانوا في عاصمة الدولة الاسلامية على عهد العباسيين ولنبدأ بالمترجمين ٠

مشاهير المترجمين

١ ـ يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ـ٨٥٧م)

وقد مر بك خبره فيما تقدم من كلامنا وفهمت كيف كان مقدمه الى دار السلام مع ابيه ماسويه الذين كان يعمل في دق الادوية في بيمارستان جنديسابور وتقابل هذه الوظيفة وظيفة الصيدلي في هذه الايام وكان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانيا فصيحا بالعربية وقد قلده الرشيد رآسة المدرسة الطبية في بغداد وجعله طبيبه الخاص وعهد اليه ترجمة الكتب اليونانية كما ذكرنا ٠ وقد خدم يوحنا هرون والامين والمأمون والمعتصم والواثق وبقى على ذلك الى ايام المتوكل ٠ ويظهر انه كان يميل الى تشريح الانسان لمعرفة ما فيه من الاعضاء وما يتداخله من العلل ؛ فقد كان له ابن بليد فتمنى لو شرحه مثل ما كان جالينوس يشرح القرود والناس ليعرف بتشريحه الاسباب التي ادت الى بلادته ولكنه خاف السلطان وكان يمنع ذلك ٠

والتاريخ يتهم يوحنا بانه تواطأ مع المعتصم على الفتك بالمأمون حينما اصابته علة في رقبته يوم كان بالقرب من طرسوس فامر تلميذا له ان يفتح الفتحة التي كانت في رقبته قبل ان تنضج ولكن التلميذ تمنع من ذلك فقال له امض وافتحها كما اقول لك ولا تراجعني فمضى وفتحها ومات المأمون رحمه الله (١) ٠ ويقول الناقل لهذا الخبر «ان فعل ابن ماسويه هذا انما هو لانه عديم المروءة والدين والامانة لا يتمسك بدينه ولا يعتقد فيه فالواجب ان لايدانيه عاقل ولا يركن اليه حازم» ٠ ونحن نعتقد ان في ذلك تحاملا كبيرا على رجل خدم الطب العربي بذكاء وخبرة وقد كان ابن ماسويه فاضلا مبجلا وله تصانيف وتراجم مشهورة وكانت وفاته بسر من رأى يوم الاثنين لاربع خلون من جمادي الاخرة سنة ٢٤٣ في خلافة المتوكل ٠

---

(١) عيون الانباء ج ١ ص ١٨٢ ٠

٢ ـ حنين بن اسحق الترجمان (٨٠٩ـ٩٧٣ م)

هـو ابو زيد حنين بن اسحق العبادي (بفتح العين وتخفيف الباء) والعباد بالفتـح قبائل شـتى من بطون العرب اجتمعت على النصرانيـة بالحيرة . وكان حنين بن اسحق فصيحا بارعا باللغة اليونانية والسريانية والعربية ؛ ولد في الحيرة واقام مدة في البصرة وكان شيخه في العربية الخليل بن احمد ثم انتقل بعد ذلك الى بغداد وتتلمذ على يوحنا بن ماسويه لدراسة الطب . وكانت مدرسة يوحنا بن ماسويه من اعم المدارس التي يتعلم فيها التلميذ صناعة الطب وكان يجتمع فيها اصناف اهل الادب وكان حنين بن اسحق من جملة من يقرأ على يوحنـا بن ماسويه وكان حنين اذ ذاك صاحب سؤال وذلك يصعب على يوحنا وفضلا عن ذلك فان الذي كان يباعد حنين من قلب يوحنـا ان الاول كان مـن اهل الحيرة والثاني من جنديسابور واهل جنديسابور واطباؤها ينحرفون عن اهل الحيرة . فسأله حنين في بعض الايام عن بعض ما كان يقرأ عليه مسئلة مستفهم لما يقرأ فحرد يوحنا وقال ما لاهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب ثم امر فاخرج من مجلسه فخرج حنين باكيا مكروبا ورحل من فوره الى بلد الروم في طلب العلم وجمع الكتب وبقى دائبا في ذلك ثلاث سنوات فتعلم اللسان اليوناني علما كانت له فيه الرياسة وعكف على تتبع اثار القدماء في الطب اربع سنوات في بغداد حتى نبغ فيه فجلته واعظمته فحول الاطباء مثل جبرئيل بن بختيشوع وغيره واعترف بفضله يوحنـا نفسه بعد ان كان قد طرده من مجلسه كما رأيت . ثم ان حنينا لازم يوحنا ابن ماسويه منذ ذلك الوقت وتتلمذ له ونقل حنين له كتبا كثيرة وخصوصا من كتب جالينوس بعضها الى اللغة العربية وبعضها الى السريانية وصـار حنين اعلم اهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية وكانت له من الدراية في هذه اللغات ما لم تكن لغيره من المترجمين الذين كانوا في زمانه وقد دأب ايضا على اتقان اللغة العربية والاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين فيها . ورأى المأمون يوما في منامه كأن شيخـا بهي الطلعة جالسـا على منبر وهـو يخطب ويقول انا ارسـطوطاليس ؛ فانتبه من منامه وسأل عن ارسطوطاليس فقيل له رجل حكيم من اليونانيين فاحضر حنين بن اسحق اذ لم يجد من يضاهيه في نقله وسأله نقل كتب

الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية وبذل له من الاموال والعطايا شيئا كثيرا ٠

كان حنين على عكس يوحنا بن ماسويه يحترم قوانين المهنة ويتمسك بالديانة ٠ فقد علمت ؛ اذا صدق الرواية ، ما كان من امر يوحنا مع المأمون وغدره اياه في المعالجة نزولا عند رغبة المعتصم فاما حنين بن اسحق فلم يكن ذلك الطبيب ٠

يحكى ان المأمون اراد ان يمتحن حنينا ليرى مبلغ تمسكه بمبادئه الطبية وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بقوله في دواء يصفه حتى يشاور غيره خوفا من ان يكون ملك الروم قد تواطأ معه على الغدر به ، فاستدعاه يوما واعطاه مالا جزيلا ثم قال له اريد ان تصف لي دواء يقتل عدوا كان يريد قتله سرا ٠ فقال حنين اني لم اتعلم الا الادوية النافعة ٠ فرغبه الخليفة وشدد عليه وهدده وحبسه وخيره بين مال جزيل او شر قتلة ؛ فكان جوابه اني لم احسن الا الشيء النافع ولم اتعلم غيره واخيرا تبسم الخليفة واظهر له قصده من هذا الامتحان ولما سئله عن السبب الذي حدا به الى هذا التصلب في رأيه قال له ان الذي منعني من الاجابة الى طلبك شيئان يا امير المؤمنين وهما الدين والصناعة ؛ الدين يأمرنا بفعل الخير والصناعة تمنعنا من الاضرار بابناء الجنس لانها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الاطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة (ان لا يعطوا دواء قتالا ولا ما يؤذي) فلم ار ان اخالف هذين الامرين ٠

وكان لحنين ولد اسمه اسحق اشتهر وتميز في صناعة الطب وله تصانيف كثيرة ونقل ايضا من الكتب اليونانية الى اللغة العربية كتبا عدة الا ان جل عنايته كانت مصروفة الى نقل الكتب الحكمية مثل كتب ارسطوطاليس وغيره من الحكماء واما حنين ابوه فكان منهمكا بنقل الكتب الطبية خصوصا كتب جالينوس التي اختص بها حتى انه في غالب الامر لا يوجد من كتب جالينوس في العربية الا كانت بنقل حنين او باصلاحه ٠

فقد ذكر ابن النديم البغدادي في (الفهرست) (١) ثبت ان الستة عشر كتابا التي يقرؤها الاطباء من مؤلفات جالينوس من ترجمة حنين . وقد ورد في كتاب (الطب العربي)(٢) نقلا عن الفهرست ايضا ان حنين قد ترجم تلك الكتب الستة عشر لجالينوس مع تلميذه حبيش . وقد ورد في الفهرست ايضا اسماء كتب بقراط العشرة ونقولها وشروحها وتفاسيرها الموجودة فيها باللغة العربية وذكر صاحب كتاب (الطب العربي) ان حنينا ترجم من تلك الكتب سبعة وترجم منها تلميذه عيسى بن يحي الثلاثة الباقية .

وعلى الجملة فان اشهر من نقلوا الى اللغة العربية من الاطباء اثنان وهما يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق فكان هذان زعيما الترجمة بين القرنين التاسع والثاني عشر وكان من دونهما عدد من المترجمين الذين نقلوا بقية كتب اليونان وبرعوا في فن الترجمة نذكر منهم قسطا بن لوقا وثابت بن قره وغيرهم .

مشاهير المؤلفين

واما المؤلفون الذين وصلت اثارهم الينا فمنهم الكندي والرازي والمجوسي وابن سينا والخ... وسنذكر اوثق ما رأينا من اخبارهم ولنبدأ بالكندي .

١ ـ الكندي

هو ابو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح فيلسوف العرب واحد ابناء ملوكها يتصل نسبه بقحطان . قال القفطي في تاريخ الحكماء (٣) «ابو يوسف الكندي والمشتهر في الملة الاسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية متخصص باحكام النجوم واحكام سائر العلوم وكان ابوه اسحق بن الصباح اميرا على الكوفة للمهدي والرشيد وكان جده الأشعث بن قيس من اصحاب النبي (صلعم) وكان قبل ذلك ملكا على جميع

---

(١) الفهرست لابن النديم (ص ٤٠٣) .

(٢) الطب العربي .
الدكتور دونالد كامبيل ص ٤٩ والفهرست ص ٤٠١ .

(٣) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٦٦ .

كندة ولم يكن في الاسلام غيره من اشتهر عند الناس بمعاناة علوم الفلسفة حتى سموه الفيلسوف فقد احتذى في تواليفه حذو ارسطوطاليس وله تواليف كثيرة في فنون من العلم . وكان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم عندما كان طبيبا في بلاطيهما وترجم من كتب الفلسفة الكثير واوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص وبذلك مهد للمتأخرين من العرب الطريق لادراك الفلسفة ، وقد بلغ ما الفه الكندي من الكتب اكثر من مئتي كتاب منها ٢٢ كتابا في الطب[١] .

٢ ـ الرازي (٨٤١ـ٩٢٦)

هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي اوحد دهره وفريد عصره قد جمع المعرفة وعلوم القدماء ولا سيما الطب [٢] وعلى يده بلغ الطب العربي ذروة النضوج وكان يعرف الرازي في اوساط اوربة اللاتينية في القرون الوسطى باسم (Rhazes Albubator) .

ولعل الرازي اول من اشتغل في طبه مستندا الى تجاربه الخاصة محتذيا في تفكيره وطريقة تتبعه حذو ابقراط وجالينوس وقد امتاز من بين الذين الفوا باللغة العربية بدرسه الطب على المريض نفسه وهو ما نسميه اليوم بالطب السريري ولذلك نرى المؤرخين يصفونه بالبيمارستاني لتعلقه بالبيمارستانات وتفرده في الطب السريري . وللرازي كتاب في البيمارستانات وفي كل ما كان يجده من احوال المرضى الذين كانوا يعالجون فيها . وكان الرازي اول من ادخل المستحضرات الكيماوية بين المفردات الطبية .

ولد الرازي في الري وهي كورة من اقليم الجبال دون طبرستان وذلك في اواسط القرن التاسع وتعلم صناعة الطب وله من العمر ثلاثون سنة واكب على النظر في الطب والفلسفة وبرع فيهما براعة جعلته ينتدب لرياسة البيمارستان في بغداد وكان ذلك (بين ٩٠٢ ـ ٩٠٧ م) . وكان الرازي قد عمر كثيرا وعمى قبل وفاته بسنتين . وكان كريما متفضلا بارا بالناس رؤوفا بالفقراء والمرضى وقد ادركته منيته وعمره نحوا من اثنين وثمانين سنة وذلك في سنة اربع وستين وثلثمائة للهجرة .

---

(١) (كتاب الطب العربي) كامبيل ص ٦٤ .

(٢) فهرست ابن النديم ص ٤١٥ .

قلت ان الرازي كان منفردا في الطب السريري ومؤلفا يدرس المرض في سرير المريض وكان مارستانيا توصل الى معرفة الامراض بين اسرة المرضى ورجل هذا شأنه لابد وان يتفرد بمزايا قلما توجد في غيره . وقد قال عنه ابن ابي اصيبعة في كتابه طبقات الاطباء : كان الرازي ذكيا فطنا رؤوفا بالمرضى مجتهدا في علاجهم بكل وجه يقدر عليه مواظبا للنظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها واسرارها وكذلك في غيرها من العلوم بحيث انه لم يكن له دأب ولا عناية في جل اوقاته الا في الاجتهاد والتطلع فيما قد دوّنه الافاضل من العلماء في كتبهم حتى وجدته يقول في بعض كتبه انه كان له صديق نبيل يسامره على قراءة كتب ابقراط وجالينوس . وللرازي اخبار كثيرة وفوائد متفرقة فيما حصل له من التمهر في صناعة الطب وفيما تفرد به من مداواة المرضى وفي الاستدلال على احوالهم من تقدمة المعرفة وفيما خبره من الصفات التي لم يصل الى علمها كثير من الاطباء . وله في ذلك مشاهدات سريرية كثيرة سجلها في باب مفرد من كتابه الحاوي نورد منها النموذج الآتي الذي وجدناه مترجما بالانكليزية في (كتاب الطب العربي) للدكتور كامبيل (١) نقلا عن كتاب الطب العربي للاستاذ براون (٢) :ـ

«يعرض لعبدالله بن سواده نوبات من حمى مختلطة تأخذ احيانا كل يوم او تأخذ غبا او ربعا وتنوب احيانا مرة في ستة ايام ويتقدم هذه النوبات نافض يسير . وكان يبول مرات كثيرة فحكمت ان احدى هذه النوبات سوف تنقلب ربعا واما ان يكون به خراج في كليتيه ولم تمضي مدة قصيرة حتى رأيت خروج المدة مع بول المريض فاعلمته انه لا تعاوده الحمى بعد وهكذا كان» .

وكان الرازي معاصرا لاسحق بن حنين ومن كان معه في ذلك الوقت (٣) وقد عاش الى ان لحقه ابن العميد استاذ الصاحب بن عباد . وصنّف الرازي كتبا كثيرة يقال انها تبلغ ٢٣٧ كتابا فقد معظمها وقد جاء ذكر اسمائها في فهرست ابن النديم وطبقات ابن ابي اصيبعة . ومن كتب الرازي

---

(١) الطب العربي كمبيل ج ١ ص ٦٩ .

(٢) الطب العربي للاستاذ براون ص ٥٢ .

(٣) عيون الانباء ج ١ ص ٣١٤ .

التي وصلت الى عهدنا كتابه المسمى بالمنصوري Liber ad Almansoram الذي صنفه للمنصور بن اسماعيل بن احمد صاحب خراسان وقد تحرى الرازي في هذا الكتاب الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علمها وعملها وهو عشر مقالات : المقالة الاولى في المدخل الى الطب وفي شكل الاعضاء وخلقها ، المقالةالثانية في تعرف مزاج الابدان وهيئتها والاخلاط الغالبة عليها واستدلالات وجيزة جامعة من الفراسة ، المقالة الثالثة في قوى الاغذية والادوية ، المقالة الرابعة في حفظ الصحة ، المقالة الخامسة في الزينة وامراض الجلد ، المقالة السادسة في تدبير المسافرين ، المقالة السابعة جمل وجوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح ، المقالة الثامنة في السموم والهوام، المقالة التاسعة في الامراض الحادثة من القرن الى القدم وكان لهذا القسم تأثير عظيم وشهرة واسعة في القرون الوسطى الاخيرة في العالم اللاتيني الغربي وقد سمى (Nonus Almansoris) وقد ذكرت فيه اعضاء الجسم من الرأس الى القدم وكان هذا الجزء من الكتاب جزءً من منهج التدريس في جامعة توبنجن في اواخر القرن الخامس عشر ، المقالة العاشرة في الحميات وما يتبع ذلك مما يحتاج الى معرفته في تحديد علاجها ٠

وهو اجل كتب الرازي واعظمها في صناعة الطب وذلك انه جمع فيه كل ما وجده متفرقا في ذكر الامراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى من بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله فكان ان جاء دائرة معارف في الطب والجراحة عامة ، هذا مع العلم ان الرازي توفى ولم يفسح له في الاجل ليحرر هذا الكتاب بشكله الكامل ٠ وقد جاء في طبقات الاطباء (ص ٣١٤) ان ابن العميد كان سبب اظهار كتابه المعروف بالحاوي لانه كان حصل بالري بعد وفاته فطلبه من اخت الرازي وبذل لها دنانير كثيرة حتى اظهرت له مسودات الكتاب فجمع تلاميذه الاطباء الذين كانوا بالري حتى رتبوا الكتاب وخرج على ما هو عليه من الاضطراب ٠

فقد زعموا ان الحاوي مؤلف من ٢٥ قسما وهو اكبر حجما من قانون ابن سينا وكان احد الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية

في باريس سنة ١٣٩٥ (١) ولم يذكر ابن النديم في فهرسته سوى (١٢) جزءا للحاوي . ويظهر للذي يتصفح كتاب الحاوي (٢) ان الرازي حذا في تأليفه حذوه في الكتاب المنصوري من حيث تقليده ابقراط وجالينوس في العمليات وكان القسم التاسع من كتاب الحاوي يبحث في الاقرباذين وهو مورد علم الصيدلة للاوربيين حتى بعد زمن النهضة الاوربية (التأسيس Renaissane) وليس هناك الآن نسخة خطية كاملة من الحاوي ولكن هناك نتف في مكاتب الاسكوريال واكسفورد (٣) .

٣ ـ علي بن العباس

هو المعروف بالمجوسي مولده بالاهواز اشتهر بالطب بعد الرازي بخمسين سنة وتوفى عام ٩٩٤ الميلادي . وكان طبيبا مجيدا متميزا في صناعة الطب وهو الذي صنف الكتاب المشهور الذي يعرف بالملكي ؛ صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة ابي علي حسن بن بويه الديلمي . وهو كتاب جليل مشتمل على اجزاء الصناعة الطبية عملها وعلمها في عشرين مقالة ، وقد اعتمد المؤلف في كتابه هذا على الكتاب المنصوري للرازي ومنه كانت مادته في الغالب وقد قصد به المؤلف ان يكون وسطا بين الحاوي والمنصوري من حيث التطويل والاختصار ولدينا نسخة مطبوعة من هذا الكتاب طبعت في بولاق بمصر وكان قد ترجم الى اللاتينية . والكتاب لا يتباعد كثيرا عن الكتب الحديثة في تبويبه وترتيب فصوله وفي نظري انه افضل كتاب عربي في الطب انتقل الينا من الازمنة الماضية بل وافضله على قانون ابن سينا وان كان الاخير قد ظهر عليه وطمس شهرته في العالم الاوربي . قسم المؤلف الكتاب الى عشرين مقالة وكل مقالة الى عدة ابواب ؛ تبحث العشر مقالات الاولى عن نظريات الطب واما العشرة الاخيرة فانها تعالج المواضيع العملية . وقد جاء في المقالة الاولى والثانية من هذه العشرة الاخيرة وصف كامل بديع لتشريح اعضاء الجسم نشرت مع ترجمة افرنسية في

---

(١) E.T. Withington Medical History 1894 P. 146

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٤١٧ .

(٣) مجلة العروة الوثقى العدد الرابع تموز ١٩٣٦ الدكتور سامي حداد .

لايدن سنة ١٩٠٣ تحت عنوان Trois Traités d' Anatomie Arabes
وكان الناشر لها (P. De Koning) (١)

اما المقالة التاسعة من العشر المقالات الاخيرة فقد خصصت بالجراح وكان هذا القسم من كتاب ابن العباس قد اتصل بالعالم الاوروبي لاول مرة بواسطة ترجمة لاتينية قام بها قسطنطين بدون ان يذكر اسم المؤلف الاصلي ٠

٤ ـ ابن سينا

هو ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا ؛ ويعرف في الغرب اللاتيني باسم (Avicenna) وكان يلقب بامير الاطباء وكان مولده في افشنه وهي قرية بقرب بخاري ٠ وهو علم من اعلام الطب العربي والفلسفة طار صيته في اقطار العالم الاسلامي قاطبة وظهرت فضائله في اوروبا الغربية وانتشرت مؤلفاته في تلك الانحاء وعكف عليها اهل تلك الديار من طلاب العلم حتى تسربت اليهم مبادئه في الطب والفلسفة وقد ذكر ابن سينا من احواله ووصف من سيرته ومن اراد الاطلاع فليقرأ ذلك في طبقات ابن ابي اصيبعة او في تاريخ الحكماء للقفطي ٠ ومما يذكر عنه انه حفظ القرآن لما اكمل العشر من العمر واشتغل بالفقه وتردد فيه الى اسماعيل الزاهد ثم قرأ المنطق على ابي عبدالله الناتلي فبدأ بكتاب ايساغوجي ثم تحول الى كتاب اقليدس ثم انتقل الى المجسطي وبعد ذلك فارق الناتلي وعكف على دراسة الكتب من الطبيعي والالهي ثم رغب في علم الطب وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه وبرز فيه في مدة قصيرة حتى بدأ فضلاء الطب يقرؤن عليه هذا العلم ، وتعهد المرضى ونبغ في فنون المعالجات المقتبسة من التجربة في السادسة عشر من عمره ثم انكب على العلم والقراءة سنة ونصف ما نام ليلة واحدة بطولها ولا اشتغل في النهار بغيره حتى اتضح له المتغلق من العلم واستحكم معه جميع العلوم ووقف عليها بحسب الامكان الانساني حتى احكم علم المنطق والطبيعي والرياضي ثم عدل الى العلم الالهي وقرأ كتاب ما بعد الطبيعة فما كان يفهم ما فيه والتبس عليه غرض واضعه حتى

(١) كامبيل : الطب العربي ٠ ج ١ ص ٧٥ ٠

اعاد قراءته اربعين مرة وصار له محفوظا وهو مع ذلك لم يفهمه حتى عشر ذات يوم على دلال في سوق الوراقين ينادي على كتاب بيده ولما عرضه عليه رده معتقدا ان لا فائدة في هذا العلم فقال له الدلال اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه فاشتراه منه فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجع الى بيته واسرع في قراءته فانفتح عليه في ذلك الوقت اغراض ذلك الكتاب ؛ وفي هذا دليل على تتبعه وجلده في التحصيل ·

كان سلطان بخاري في ذلك الوقت نوح بن منصور الساماني وهو الثامن من ملوك الاسرة السامانية الذين انصرفوا في الحكم في المشرق في عهد المعتضد (٨٩٢-٩٠٢م) وكان نوح بن منصور قد حكم في (٩٠٠م-٣٨٧هـ) ، وهو آخر الامراء السامانيين فقد حلت عليهم السبكتكية في ايام الخليفة القادر العباسي· واتفق لنوح بن منصور ان مرض مرضا حار الاطباء فيه فاشار عليه اطباؤه ان يشرك معهم ابن سينا فاحضره وشاركهم في معالجته وكان ذلك سببا له لاستحصال اذن منه بدخول دار كتبه وقد ظفر فيها بما اراد من الفوائد ورأى من الكتب ما لم يره من قبل واستفاد منها · وفي تلك الايام صنف كتابا جامعا في العلم على نظير دائرة المعارف اتى فيه على سائر العلوم سوى الرياضي وله اذ ذاك احدى وعشرون سنة فانتقل الى جرجان ثم الى الرأس واخيرا استقر في همذان ثم اتفق له معرفة الامير شمس الدولة وذلك بسبب قولنج كان قد اصابه وعالجه حتى شفاه الله بعد ان اقام في معالجته اربعين يوما بلياليها حتى صار من ندماء الامير ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها ثم اتفقت له اسباب بعد وفاة شمس الدولة جعلته يرفض الوزارة ويختار العزلة ليتفرغ الى التأليف ثم عن له التوجه الى اصفهان وهناك لحق علاء الدولة الذي اكرم مثواه وجعله في خاصته وصار من ندمائه واطلق يده في تدريس الطب والفلسفة وتأليف الكتب العديدة في الطب والمنطق والرياضيات وكان الشيخ قوى القوى مما ادى به الى انواع من الافراط اثرت مع كثرة العمل في مزاجه وبقي يعاني الامراض وهو ملازم لعلاء الدولة لا ينفك عنه والمرض يلاحقه وهو على عادته في الافراط الى ان علم ان قوته قد سقطت وانها لا تفي بدفع المرض فاهمل مداواة نفسه واخذ يقول «المدبر الذي كان

يدبرني قد عجز عن التدبير والآن فلا تنفع المعالجة » وبقى على هذا اياما ثم انتقل الى جوار ربه وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة وكان موته سنة ٤٢٨ هـ (ثمان وعشرين واربعمائة) وكانت ولادته في سنة خمس وسبعين وثلثمائة (٣٧٥ـ٤٢٨ هـ) ودفن بهمدان وقبره تحت السور من جانب القبلة فيها • ذكرنا ما ذكرنا في ترجمة ابن سينا بالنظر لخدماته التي اسداها للغة العربية بمؤلفاته وكانت ثقافته عربية لان اللغة العربية كانت لغة العلم في جميع الاقاليم الاسلامية من المشرق الى المغرب ولم يضع الشيخ الرئيس كتابا بغير العربية على ما نعلم وكانت مؤلفاته قد بلغت المائة كتابا اجلها شأنا واعظمها حجما كتابه المسمى بالقانون في الطب وهو الذي ذاع صيته في العالم الطبي ونال شهرة وانتشارا واسعا وحظا وافرا ولا يزال موضع اهتمام الكثيرين الى يومنا هذا ومع ذلك فقد اعتبره بعض اطباء العصر من العرب اقل منزلة في حسن الترتيب وغزارة المادة وفصاحة اللغة عن كامل الصناعة للمجوسي (١) الذي مر الكلام عنه • وترجم القانون الى اللاتينية وكان من امهات الكتب التي تدرس في جامعتي مونبيليه ولوفان الى اواسط القرن السابع عشر وقد طبع القانون باللغة العربية ثلاث طبعات الاولى في رومية سنة ١٠٨٠ هـ والثانية في بولاق سنة ١٢٩٤ هـ والثالثة في الهند سنة ١٣٢٣ هـ (٢).

وينقسم كتاب القانون الى خمسة كتب : الكتاب الاول والثاني في الفيزيولوجي وحفظ الصحة والكتاب الثالث والرابع في المعالجة والكتاب الخامس في المفردات الطبية •

هؤلاء هم الذين كانت كتبهم المعول عليها في دراسة الطب غير ان هناك كثير من نوابغ الاطباء الذين اشتغلوا في بغداد في البحث والتأليف ووصلت الينا بعض كتبهم غير اننا ضربنا صفحا عن ذكرهم لضيق المقام واكتفينا بمن ذكرنا ومن يشأ الاستزادة فليراجع كتب المراجع التي اشرنا الى بعضها في الهوامش •

(١،٢) مجلة العروة الوثقى بعدد ٤ تموز ٩٣٦ الدكتور سامي حداد.

المدارس والبيمارستانات العراقية

يظهر لمن تحقق هذه الناحية من التاريخ الطبي في بغداد ان البيمارستانات كانت كثيرة في انحاء المدينة ؛ ويجد لكل مدرسة بيمارستان ملحق بها للدروس العملية بينما كانت الدروس النظرية تعطى في مجالس الاطباء النابغين الذين اشتهروا بالقاء تلك الدروس في حلقاتهم الخاصة ما عدا المدارس الرسمية التي كانت تحت اشراف الخليفة او وزيره . ويظهر لي ان المعنى ببيمارستان بغداد هو المستشفى المركزي الرسمي الملحق بالكلية الطبية وكان رئيسه طبيبا للخليفة وعميدا للكلية في نفس الوقت يختاره الخليفة من خيرة الاطباء وافضلهم ويفاخر به بين ملوك الدول الشرقية ويوفده لمعالجة من يمرض منهم عند الحاجة تفضلا منه ودليلا على مبلغ عنايته وتفقده لاخوانه الملوك .

وكان من هؤلاء الاطباء المختارين جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع وهو من اطباء الخليفة المقتدر (٢٨٢ـ٣٢٠هـ) وفي عهد ابنه المطيع (٣٣٤ـ٣٣٦هـ) انتقل الى خدمة معز الدولة اول سلطان من آل بويه في بغداد ومن بعده صار في خدمة عضد الدولة ابن اخي معز الدولة وفي عام ٣٥٧ هـ انتدب عضد الدولة بختيشوع لمداواة زوج خالته من مرض الم به فاعطاه دواء افاده كثيرا وكان به وجع المفاصل والنقرس فكبرت منزلته عند عضد الدولة واجرى له رزقين احدهما برسمه الخاص والآخر برسم البيمارستان الذي جدده عدا الجراية الخاصة به .

وكانت اسرة بختيشوع تستأثر بخيرات الخلفاء وتتمتع بالثقة في بلاط الملك . وكان عميدها عبدالمسيح ، وجدهم الاعلى جورجس بن جبرائيل ومنهم بختيشوع بن جورجيس وجبرئيل بن بختيشوع وبختيشوع بن جبرئيل وجبرئيل بن عبدالله وعبدالله بن جبرئيل .

وبقيت مهنة الطب في ايدي افراد هذه الاسرة في العصر العباسي الذهبي وامتدت الى ايام المقتدر في عهد استلاء آل بويه . ويظهر من حكايات الكتب التاريخية ان اهتمام هذه الاسرة بجمع المال كان يفوق اهتمامها بخدمة المهنة والقيام على اعمال البيمارستان .

obeikandl.com

اما امور الترجمة فكانت من اختصاص يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق العبادي الذي جعله المتوكل رئيسا للاطباء في بغداد والكندي ، والاول سرياني من مدرسة جنديسابور كما مر بك والثاني والثالث عربيان وكان لهؤلاء الفضل في نقل الكتب اليونانية للطلاب ·

اما الاستاذ الفذ والمعلم الحقيقي للطب العملي فهو الرازي ·

البيمارستانات وامر العناية بها

كانت البيمارستانات كثيرة كما قلنا وكانت تلك التي في بغداد ملحقة بالمدارس الطبية ويتولى ادارتها من اشتهر من اعلام الطب ممن ذكرنا وممن سيأتيك ذكرهم · اما تلك التي كانت خارج بغداد فكانت من النوع المتنقل فائدة من كان بعيدا عن المدن الكبيرة وكان هناك عدا البيماوستانات الخاصة بيمارستان للامراض السارية وآخر للامراض العقلية وثالث للسجون ونحو ذلك ·

ونورد للقاريء فيما يلي حكاية رواها الطبيب ثابت بن سنان [١] في تاريخه ومنها تتبين حالة العلم ورقيه واثره في تأسيس المعاهد العلمية في عاصمة البلاد وضواحيها قال ثابت بن سنان :ـ

اذكر وقد وقع الوزير علي بن عيسى بن الجراح [٢] كتابا الى والدي ستان في ايام تقلده الدواوين من قبل المقتدر بالله في سنة كثرت فيها الامراض جدا وكان والدي يتقلد فيها البيمارستانات في بغداد وغيرها يقول فيه : فكرت في امر من في السجون وانه لايخلو مع كثرة عددهم وجفاء اماكنهم ان تنالهم الامراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء في ما يعرض لهم فينبغي ان تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحملون اليهم الادوية والاشربة ويطوفون في سائر السجون ويعالجون فيها المرضى ويزيحون عللهم بما يحتاجون اليه من الادوية والاشربة» ففعل ذلك والدي طول ايامه ·

---

(١) ثابت بن سنان طبيب مؤرخ عاش هو وابوه سنان بن ثابت بن قره المشهور في خدمة المقتدر بالله والقاهر والراضي وكان من الاطباء البارعين والمؤرخين المشهود لهم بالدقة والكفاءة ·

(٢) علي بن عيسى بن الجراح كان من احسن وزراء المقتدر وهو صاحب المشاريع الخيرية الكثيرة وقد اوجد ديوانا للخير سماه ديوان البر ·

وورد الى والدي توقيع آخر يقول فيه « فكرت في من في السواد (١) فانه لا يخلو ان يكون به مرضى لا يشرف عليهم طبيب لخلو السواد من الاطباء فتقدم بانفاذ الاطباء ومعهم خزانة للادوية والاشربة (مستشفى سيار) ليطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو اليه الحاجة ويعالجون من فيه من المرضى ثم ينتقلون الى غيره » ففعل والدي ذلك وبقي يرسل النجدات الصحية وينقلها من محل الى آخر ٠

هكذا كانت عناية الخلفاء بالصحة في الاماكن التي تبتعد عن عاصمة الخلافة علاوة على اياديهم البيضاء على العلوم الطبية ٠

وكان سنان بن ثابت كما يظهر لي مدير المعاهد والمؤسسات الصحية في خلافة المقتدر وكانت النفقة عن البيمارستان العضدي بالمخرم من واردات وقف السيدة شجاع ام المتوكل على الله وكان الوقف في يد وهب بن محمد الكلوذاني وكان يصرف قسطا من هذا الوقف الى بني هاشم وقسطا على نفقة البيمارستان وكان المتولي المذكور يروح على بني هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف الى نفقة البيمارستان ويضيقه فكتب سنان الى علي بن عيسى يشكو اليه هذه الحال ويعرفه ما يلحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقام لهم من الفحم والمؤن والدثار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم ٠ فوقع الوزير على ظهر رقعته الى المتولي توقيعا نسخته « انت تقع على ما ذكره سنان وهو غليظ جدا والكلام فيه معك خاصة وما احسبك تسلم من الاثم فيه ولابد من تعديل الحال بين ان تأخذ للهاشميين من المال قسطا وتجعل للبيمارستان قسطا بل البيمارستان احق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ اليه وعظيم النفع به ، فعرفني ما السبب في قصور المال ونقصانه في سد نفقة البيمارستان هذه الشهور المتتابعة وفي هذا الوقت خاصة من الشتاء واشتداد البرد ؟ فاحتل بكل حيلة لما يطلق للبيمارستان حاجته من المال وعجل ذلك حتى يدفأ من فيه من المرضى والممرورين بالدثار والكسوة والفحم ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة واجبني بما يكون منك في ذلك واعتن بامر البيمارستان افضل عناية » ٠

---

(١) السواد ــ ضياع العراق التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب سميت به لسوادها بالزرع والنخيل والاشجار ٠

وفي سنة ست وثلثمائة اشار سنان بن ثابت هذا على المقتدر بأن يتخذ بيمارستانا ينسب اليه فامره باتخاذه ؛ فاتخذه في باب الشام وسماه (البيمارستان المقتدري) وانفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار [١].

• وفي اول المحرم سنة ست وثلثمائة فتح سنان بن ثابت بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى وجلس فيه ورتب الاطباء به وقبل المرضى ، وكانت النفقة عليه في شهر ستمائة دينار •

وفي سنة (٣١٩ هـ) اتصل بالمقتدر ان غلطا جرى على رجل من العامة من بعض الاطباء فمات الرجل : فامر ابراهيم بن محمد بن بطحا ، محتسبه [٢]، ان يمنع جميع الاطباء من التصرف الا من امتحنه سنان وكتب له رقعة (اجازة) بخطه بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة وامر سنانا بامتحانهم وان يطلق لكل واحد منهم ما يصلح ان يتصرف فيه (حسب اختصاصه) في الصناعة • وبلغ عددهم في الجانبين في بغداد ثمانمائة ونيفا وستين رجلا سوى ما استغنى عن امتحانه باشتهاره بالتقدم في الصناعة وسوى من كان في خدمة السلطان •

فالمهنة الطبية اذن كانت تحت اشراف الحكومة واما البيمارستانات فكانت كثيرة وفي الغالب يقيمها المحسنون من ارباب الخير وطلاب الاجر والثواب على مثال ما نراه في الغرب الآن •

يحكى ان امير الامراء [٣] في ايام الراضي وهو (بحكم) الديلمي كان بواسط لما مات الراضي بالله وقد استدعى سنانا الطبيب وسأله ان ينحدر اليه الى واسط ولم يكن يطمع في ذلك منه في ايام الراضي لملازمته بخدمته فانحدر اليه سنان وادى المهمة التي انتدب اليها في تدبير بدن الأمير والنظر في مصالحه وابدى الطبيب المذكور من المهارة الفائقة

(١) يصرف الان على المستشفى الملكي في بغداد (٧٠٠٠) دينارا في الشهر .

(٢) المحتسب هو مقابل كبير القضاة .

(٣) احدث هذا الاسم في بغداد في ايام خلافة الراضي وصار الى امير الامراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بامره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء

في توجيه الامير الى عمل الخير حتى عمل بواسط في وقت المجاعة دار ضيافة وببغداد بيمارستان يعالج فيه الفقراء وانفق في ذلك جملة من المال . هذه كانت حال المعاهد الصحية في عهد الدولة العباسية ؛ فطبيب الملك هو رئيس الاطباء ، وهو الذي يفتح البيمارستان من مال الدولة او من اموال الاوقاف والمحسنين ، ويتعهد بتوسيع الاسعاف الصحي في اطراف المملكة ، ويراقب الممارسة الطبية ، ويمنح درجات الاختصاص ، ويبطل اجازة من لم يتأكد من كفايتهم العلمية ، ولكل دور رجال يقومون بادارة الصحة العامة ومراقبة التهذيب الطبي من خيرة اطباء العصر واقربهم الى بلاط الملك .

كان التهذيب الطبي يتم في بغداد في دار الخلافة وقد اقيمت لذلك بيمارستانات شهيرة درست كلها ولم يبق منها اثر يذكر . وكان المدرسون يلقون الدروس العملية في البيمارستان ولهم مجالس للدروس الطبية العملية نورد منها نماذج للاطلاع على طرائق التمرين في ذلك العهد. منها « قال ابو الحسن الوراق : قال لي رجل من اهل الرى شيخ كبير سألته عن الرازي فقال كان شيخا كبير الرأس مسقطه ، وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون وكان يجيء الرجل فيصف لاول من يلقاه منهم فان كان عنده علم اجابه والا تعداه الى غيره فان اصابوا والا تكلم الرازي في ذلك (١) .

ومنها « انشيء مقابل المدرسة المستنصرية ايوان وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم » (٢) . وهذا كما ترى مماثل لما يسمى الآن بالعيادة الخارجية التي يتلقى فيها الطلاب الدروس العملية .

والظاهر ان اسلافنا كانوا يعتمدون في معاينتهم للمريض على النبض والبول فقد وجدت حكايات كثيرة عن الاطباء عند فحصهم المريض تدل على ذلك مثل قولهم « اخذ مجسه وتأمل قارورته وشخص مرضه بكذا »

---

(١) تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٧٢ .

(٢) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٨٢ .

والقارورة قارورة البول . فهذه العبارة تكررت كثيرا في صدد البحث عن معاينة الاطباء ولم يذكروا غيرها مما يدل على وسائط اخرى للتشخيص كانت لديهم في ذلك العهد وكانوا يعتمدون ايضا على النظر في سحنة المريض والتأمل لما يبدو عليه من علامات عامة ، فقد كانت لهم فراسة عجيبة في هذه الناحية حتى انهم كانوا يقرؤن عاقبة المرض باحوال معروفة لديهم تبدوا على المريض وقد اطلقوا على تلك عبارة (تقدمة المعرفة) وهي تقابل الكلمة اللاتينية Prognostica التي نعبر عنها في يومنا هذا بكلمة (انذار المرض) .

والآن لنقدم الى وصف البيمارستانات الشهيرة التي كانت ملحقة بالمدارس الطبية في بغداد بصورة منفصلة ولنبدأ ببيمارستان هرون الرشيد.

١ ــ بيمارستان هرون الرشيد

صمم الرشيد بعد الذي سمعه عن مدرسة جندي‌سابور وبيمارستانها على نقل مركز الدراسة الطبية الى عاصمة الخلافة في بغداد فتهيأ لتأسيس معهد علمي يفوق بترتيبه واتقانه معهد جندي‌سابور ، تلك المدينة التي اصبحت خاضعة لمركز الخلافة . ولكن الى من يعهد امر التأسيس ولمن يقلد ادارة المعهد ؟

كان جبرئيل بن بختيشوع طبيبا لجعفر بن يحى البرمكي عند مرضه عام ١٧٥ هـ وقد وفق يوما في معالجة حضية للرشيد فعجب من مهارته الطبية واحبه وجعله رئيسا على جميع الاطباء وكان محله يقوى عند الرشيد وقتا بعد آخر حتى عهد اليه بشؤون المملكة الصحية وفاتحه في امر البيمارستان فوافق وشجعه على تأسيسه فلما ان تم له ذلك عهدت ادارته الى يوحنا بن ماسويه بترشيح من جبرئيل ، غير ان مرور الزمن ادى الى حصول التباغض والشحناء بينهما ثم الى خصومة شديدة . وقد روي ابن القفطي في تاريخ الحكماء (ص ٣٨٣) من اقوال جبرئيل بن يوحنا في ابن ماسويه نثبته في ما يلي لما يحويه من معلومات تاريخية عن كيفية افتتاح البيمارستان وتعيين ابن ماسويه لادارته قال جبرئيل : (ان الرشيد امرني باتخاذ بيمارستان فاحضرت (دهشتك) من بيمارستان جندي‌سابور لاقلده البيمارستان فامتنع من ذلك وطلب اعفاءه فاعفيته فقال

لي : اما اذا اعفيتني فاني اهدي اليك هدية ذات قدر يحسن بك قبولها ويكثر منفعتها لك في هذا البيمارستان . فسئلته عن الهدية فقال : ان صبيا ممن كان يدق الادوية عندنا اقام في البيمارستان اربعين سنة وقد بلغ الخمسين سنة او جاوزها قد عرف الادواء داء فداء وما يعالج به اهل كل داء وهو اعلم خلق الله بانتقاء الادوية واختيار جيدها ونفي رديها وانا اهديه اليك . فاضممه الى من احببت من تلاميذك ثم قلد تلميذك البيمارستان فان اموره تتحسن على احسن مخارجها . فقلت قد قبلت وانصرف (دهشتك) الي بلده وانفذ الي رجلا فدخل الي في زي الرهبان فكشفته فوجدته على ماحكى لي عنه . فسألته التسمي لي فاخبرني ان اسمه (ماسويه) وكان المنزل الذي ينزله ماسويه يبعد عن منزلي ويقرب من منزل (داود بن سراقيون) فما مضى بماسويه الا يسيرا حتى صار الى وقد غير زيه ولبس الثياب البيض فسئلته عن خبره فاعلمني انه قد عشق جارية لداود بن سراقيون صقلبية يقال لها (رسالة) وسألني ابتياعها فابتعتها بثمنمائة درهم ووهبتها له فاولدها (يوحنا) واخاه ثم صيرت ولده كأنهم ولد قرابة لي وعنيت برفع اقدارهم وتقديمهم على ابناء اشراف اهل هذه الصناعة وعلمائهم ثم رتبت ليوحنا ، وهو غلام ، المرتبة الشريفة ووليته البيمارستان وجعلته رئيس تلاميذي . انتهى كلام جبرئيل .

ونحن نستخرج من هذه الحكاية ان جبرائيل كان رئيسا للاطباء او مديرا عاما للصحة حسب تعابير زماننا هذا في عهد الرشيد والمأمون الى زمن المتوكل وهو الذي اسس البيمارستان وقلد ادارته يوحنا بن ماسويه الذي كان ربيبه ومعلمه كما نرى .

واعتقد ان الرازي كان قد التحق بهذا البيمارستان وعلم فيه وربما كان البيمارستان العضدي قد اسس على انقاضه كما سيظهر لك فيما يرد من كلامنا عن ذلك البيمارستان .

وقد سكت التاريخ عن تفصيل احوال هذا البيمارستان ومحله وكيفية ادارته وطريقة تخريجه للاطباء وكلما حاولنا العثور على شيء مما يجلي هذا الغموض كان نصيبنا الفشل واملنا ان يرشدنا اهل الفضل الى ما نحن نجهله فنستفيد منه شيئا عن المؤسسات الصحية والمعاهد الطبية في ذلك العهد وفوق كل ذي علم عليم .

٢ ـ البيمارستان العضدي

لعل هذا البيمارستان من اجل المؤسسات الصحية التي عرفناها في العصور التي اعقبت عصر البيمارستان الرشيدي . فقد اسس البيمارستان الرشيدي بعد مجيء جبرائيل بن بختيشوع الى بغداد في سنة ١٧٥ هـ ودام تحت ادارة يوحنا الى ان توفي في سنة ٢٤٣ هـ بسر من رأى في خلافة المتوكل .

اما البيمارستان العضدي فقد اسسه عضد الدولة بن بويه الذي ملك العراق في سنة ٣٧٢ هـ على عهد الخليفة الطائع وامر بتعميره على طرف الجسر من الجانب الغربي في بغداد (١) وفرغ من تعميره سنة ٣٦٨ هـ كما جاء في وفيات الاعيان لابن خلكان وفي سنة احدى وسبعين وثلثمائة فتح البيمارستان العضدي ونقل اليه جميع ما يحتاج اليه من الادوية والاثاث (٢) .

كان يدير هذا البيمارستان اربعة وعشرون طبيبا يتقاضون الرواتب . وكان من جملتهم ابو الحسن علي بن ابراهيم بن بكس وكان دأبه ان يدرس فيه الطب وكان له منه ما يقوم بكفايته (٣) وكان منهم ابو الحسن بن كشكرايا المعروف بتلميذ سنان وكان اولا في خدمة الامير سيف الدولة بن حمدان ولما بنى عضد الدولة البيمارستان استخدمه فيه وكان من اجل تلامذة سنان بن ثابت .

وهناك اطباء آخرون يشتغل البعض منهم بالتدريس ويتولى البعض الآخر المعالجات للمراجعين من المرضى وكان في جملة الاطباء الخواص مع هؤلاء الاطباء من الكحالين الفضلاء (ابو نصر بن الدحلي) ومن الجراحين ابو الخير وابو الحسن بن فتاح وجماعته ومن المجبرين المشار اليهم ابو الصلت (٤) .

---

(١) هكذا جاء في طبقات الاطباء (ج ١ ص ٣٠٠) والجسر المذكور هنا هو الذي كان منصوبا في محل قنطرة السكة الحديدية الموجودة الان وقد ورد في تعليق مصطفى جواد على كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي البغدادي (ص ١) ان المستشفى العضدي كان على شاطىء دجلة مما يقابل مقبرة المنطقة اليوم بين الكاظمية وبغداد .

(٢) طبقات الاطباء ج ١ ص ٤٥٦ .

(٣) مختصر الدول لابن العبرى

(٤) طبقات الاطباء ج ١ ص ٣١٠ .

obeikandl.com

لمن غير هؤلاء فقد كان في البيمارستان العضدي عدة مدرسين ومداوين منهم نظيف القس الرومي وابو الفرج بن الطبيب ، وكان هذا من فضلاء المدرسين يقرىء صناعة الطب في البيمارستان ويعالج فيه المرضى وامين الدولة بن التلميذ وكان ساعورا (١) في البيمارستان ومن اساتذتها الاجلاء وقد فرض اليه الخليفة رآسة الطب في بغداد .

ويظهر ان عدد الطلاب الذين كانوا يتلقون الدروس من استاذ واحد كانوا لا يتجاوزون الخمسين طالبا كما يستبان من كلام ابن ابي اصيبعة في طبقاته اذ يقول : ان امين الدولة بن التلميذ لما كان ذات يوم يلقي الدروس العملية اذ دخل منزف يعرق دما في زمن الصيف فسأل تلاميذه وكانوا قدر خمسين نفسا فلم يعرفوا المرض فقال ان دمه قد رق ومسامه قد تفتحت فيحتاج الى غذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام (٢)

وقد تعاقبت الاطباء على هذا المعهد العلمي الشهير وتوالت الروءساء عصرا بعد عصر الى حين انقراضه . ويظهر ان الاستشارة الطبية كانت من الاصول المتبعة في ذلك العهد وهذه الحكاية تدل على ذلك : مرض الخليفة الناصر لدين الله في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة مرضا شديدا وكان المرض بالرجل وعرض له في المثانة حصاة كبيرة مفرطة في الكبر واشتد الالم وطال المرض وكان طبيبه ابو الخير المسيحي شيخا مسنا وقد خدمه مدة طويلة وكان خبيرا متقنا للصناعة ، فامتد بالخليفة المرض وضجر من المعالجات فاشير عليه بان تشق المثانة لاخراج الحصاة فسأل عن حذاق الجراحين فاخبر برجل منهم يقال له ابن عكاشة من ساكني الكرخ بجانب بغداد الغربي فاحضر وشاهد العضو العليل وامره ببطه فقال احتاج ان اشاور مشايخ الاطباء في هذا ؛ فقال له من تعرف ببغداد من صالحي هذه الصناعة ؟ فقال يا مولانا استاذي وشيخي ابو نصر ابن المسيحي فقال له الخليفة اذهب اليه واحضره معك . فلما حضر قال له يا ابا نصر مثل نفسك انك قد دخلت بيمارستانا وانت تباشر به مريضا قد ورد من بعض الضياع واريد ان تباشر مداواتي وتعالجني في هذا المرض كما تفعل

---

(١) الساعور هو ما يقابل المدير الداخلي للمستشفيات اليوم

(٢) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٦٠ .

بمن هذه صفته . فقال السمع والطاعة ولكني احتاج ان اعرف من هذا الطبيب المتقدم مباديء المرض واحواله وتغيراته وما عولج به من اوله والى الآن . فاحضر الشيخ ابو الخير واخذ يذكر له ابتداءات المرض وتغيرات احواله وما عولج به في اول الامر والى آخر وقت . فقال التدبير صالح والعلاج مستقيم . فقال الخليفة هذا الشيخ اخطأ ولابد من صلبه . فقام ابو نصر المسيحي وقال يا مولانا بحق نعمة الله عليك لا تسن على الاطباء هذه السنة : واما الرجل فلم يخطىء في التدبير ولكن لسوء حظه لم يته المرض فقال قد عفوت عنه . ثم اخذ ابو نصر في مداواته فسقاه ودهن العضو بالادهان الملينات وقال له ان امكن ان نلاطف الامر بحيث تخرج هذه الحصاة من غير بط فهو المراد وان لم تخرج فذلك لا يفوتنا . فلم يزل كذلك يومين وفي اليوم الثالث رمى الحصاة فقيل انه كان وزنها سبعة مثاقيل وقيل خمسة وقيل انها كانت على مقدار اكبر نواة تكون من نوى الزيتون (١) .

ويخال لي ان القدماء كانوا يخصصون في مستشفياتهم ساعات معينة للاطباء الاخصائيين على نحو ما يجري في اوروبا اليوم .

وقد زار ابن جبير الاندلسي بغداد في زمن الخليفة الناصر لدين الله ورأى البيمارستان الذي نحن في صدده وقال في وصفه ما يلي :ـ في غربي بغداد بين محلة الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان . وهي مدينة صغيرة فيها البيمارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ويعالجون المرضى به ويرتبون لهم اخذ ما يحتاجون اليه . وبين ايديهم قومة يتناولون طبخ الادوية والاغذية . والبيمارستان قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل اليه من دجلة (٢) .

وقد زار بغداد ابن بطوطة في حكم السلطان ابو سعيد بهادرخان وهو الذي اسلم من ملوك التتر وقد رأى الجانب الغربي من بغداد خرابا اكثره وقد بقي منه ثلاث عشر محلة كل محلة كأنها مدينة ومن هذه المحلات

---

(١) طبقات الاطباء ج ١ ص ٣٠١

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٠٤

محلة البصرة وبها جامع الخليفة ابي جعفر المنصور . والبيمارستان فيما بين محلة البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصير كبير خرب . والبيمارستان بقيت منه الآثار (١) . ذلك هو المستشفى العضدي ؛ ونحن نعتقد ان عضد الدولة انما جدد البيمارستان الرشيدي ووسعه واضاف الى عمارته واسماه باسمه كما يفهم من الروايات المختلفة المتواترة الينا من كتب التاريخ التي اشرنا اليها في هوامش هذا البحث .

بعد نكبة هولاكو

النهضة في محنة العصر المظلم

ولما انقرضت الدولة العباسية وحلت ببغداد النكبات العظيمة بعد استيلاء هولاكو المغولي : طغى عليها الخراب فلم يبق فيها من آثار العمران شيء ، واندرست معاهد العلم وتفرق اهلها ولم يسجل التاريخ لمدينة السلام فضلا طيبا يذكر في تلك الفترة المظلمة . والذي يلوح لنا ان الطبابة قد انحطت في هذا الدور الى دركة الصنائع الخسيسة المبنية على الشعوذة والتدجيل ينتحلها من ليس من اهلها ممن ضاقت به الدنيا وانعدمت لديه اسباب الكسب على الوجه المشروع . نذكر من ذلك ما نقله ابن الفوطي في كتابه الموسوم بالحوادث الجامعة (ص ٦٢) عن حالة الاطباء حوالي سنة ٦٣١ هجرية قال « يخرج من الناس الصبي ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين وهو كتاب يبحث في امراض العيون وخمس قواثم من تذكرة الكحالين وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة وجلس في مقاعد الاسواق والشوارع على دكة حتى يعرف ، وبين يديه المكحلة والمكحلان وهو مركب من ملح . يؤذي هذا في بدنه ويجرب على ذا في عينه ، فيفتك من اول النهار الى آخره ويمضي آخر الليل الى منزله ومكحلته مملوءة قراضة (وهي ما تقرض من الدينار وكانوا يتعاملون بها) فاذا عرف بقعوده على الدكة وصار له الزبون قام يدور ويدخل الدور » . ويصف على هذا المنوال احوالهم الزرية وطرقهم المرذولة التي حطت من قيمة الطب والاطباء .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٤١

وتوالت على هذه البلاد بعد نكبة هولاكو سنوات عجاف مر بك خبرها ؛ قاست فيها من الاحن والاهوال والافلاس في العلم والدين والسياسة ما اسلمها الى حال موٴلم من التفسخ لم ترزيء بمثله بلد من بلاد الله • ثم جاءت هذه السنوات الاخيرة وفيها بدأت الروح الطيبة تسير مسراها في هذا الجسد المحطم فانفتحت مغاليق الشعور واحس الناس بالهوة التي يندفعون اليها وقد ادركتهم رحمة الله فثابوا الىرشدهم وقاموا يحيون موات الامل في نفوسهم ليتابعوا ما بدأ به اجدادهم العظام من امجاد البست البشرية حللالهناء والرفاهية دهورا طويلة ؛ والله الموفق الى ما فيه الخير والنجاح انه سميع مجيب •

obeikandl.com